بدء الخلق ووهم أزلية المادة

د. محمد دودح



منذ القدم كان هذا الكون العجيب الممتد حولنا محط تساؤل الإنسان وفصوله، ومن بين الأسئلة: كيف ظهر هذا الكون إلى الوجود؟ هل هو حادث أم أزلي؟ وما عمره؟ هذه هي بعض الأسئلة التي كانت دوماً محل جدل بين المؤمنين بمبدأ الخلق، والملحدين الذين ادعوا عدم احتياج الكون إلى خالق لأن المادة أزلية ـ بزهمهم ــ

ولم يفت المفكرين المسلمين بيان تلك المسألة، ودفع و م أزلية المادة، والجواب على الاعتراضات الفلسفية، فقالوا: بأن الذات العلية أزلية لا يحدها حادث عارض كالزمان أو المكان: لأن الزمان مبني على حركة الأجرام وتغير المكان بانتظام، والحركة وليدة الحدوث، ولما بد لها من قدرة أوجدتها، وحفظت النظام، قال ابن تيمية - رحمه الله -: (الليل والنهار، وسائر أحوال الزمان تابعة للحركة، فإن الزمان مقدار للحركة، والحركة قائمة بالجسم المتحرك،، وقال في درء التعارض 155%؛ (وأما قدم شيء من العالم فلا دليل لكم عليه، بل دليلكم يدل على نقيضه، فإنه لو كان المفعول مقارباً للفاهل لزم ألما يحدث في العالم شيء، بينما قال أبو حامد الغزالي - رحمه الله -: بأن الكون حادث، وأنه لم يكن قبله زمان، أي أن بدء الزمان والمكان قد وقع مع خلق الكون: لأن الزمان مرتبط بالحركة، ولو تصورنا أن كل شيء في هذا الكون قد سكن وتوقف إذن لتوقف الزمان، أي: لم يعد هناك زمان، وهكذا فمن الخطأ توهم وجود زمان قبل خلق هذا الكون، وعندما أشارت المنظرية النسبية إلى أن الزمان بع والمول، والعرض، والمارتفاع كان بديهياً عدم وجوده في عالم لم تخلق بعد أبعاده المأخرى، وقد تجمع اليوم من الأدلة العلمية ما يكفي للقطع بخلق الكون منذ عدة مليارات من السنين، وأن سرمدية المادة وهم، والدليل العلمي يدفعه، ولذا قد تلاشت الآن تماماً فرضية الحالة المستقرة، (state steady) للكون لا مولد له، أي: أنه لا أنهائي في الزمان والمكان، رغم أنها كانت نظرية مقبولة في الأوساط العلمية حتى منتصف القرن العشرين.

كم هو عمر الأرض؟ وما هو عمر الكون؟ هذاك عدة طرق لتقدير العمر،مثل معدل تزايد ملوحة البحار لتقدير عمر البحار، ومعدل تحلل المواد المشعة لتقدير عمر القشرة الأرضية، وعمر النيازك والأحجار القمرية، وأما تقدير عمر الكون فيعتمد على معدل تباعد المجرات أو (ثابت هابل)، وعلى هذا الأساس يقدر عمر الكون بمليارات السنين، وباستخدام أدق الأجهزة في قياس قيمة ثابت هابل تقديره حالياً حوالي: 22 (30-30)كم/ ثانية، مما يعطي عمراً للكون حوالي: 12.5 (10-15) مليار سنة (عمر الكون = سرعة الضوء/ ثابت هابل مليون). والمحقيقة أن مجرد اكتشاف المانسان لظاهرة الماشعاع كان كافياً لدفع وهم أزلية المادة تهرباً من الماقرار ببدء المخلق الذي يقطع بوجود المخالق وقدرته، وأزليته وحده؛ لأنه ما دامت الشمس وجميع النجوم الأخرى مشتعلة، وتبعث الماشعاعات، إذاً فلا بد من وجود بداية لها؛ لأنها لو كانت أزلية لنفد وقودها منذ مليارات السنين.

وهكذا ساهم علم الفيزياء (physics)، في توجيه ضربات أليمة للملحدين قبل أن يوجه لهم الضربة القاضية بتأكيد بدء الخلق، ولما يمكن تجاهل دور علم الفلك (ASTRNOMY)، فكالهما قدساهم بطريقة أو أخرى في معرفة العديد من خصائص المأجرام السماوية البعيدة بما يدفع أزلية الكون، فقد كشف (فاستو مالفن سليفر) عام 1913م، أن بعض المأجسام السماوية التي كان يعتقد سابقاً أنها غبار كوني تبعد عنا بسرعة: (1801ءكم/ثانية)، وقد عرف من بعد أن تلك المأجسام لم تكن إلما مجرات، ثم أعلن إدوين هابل عام 1929م قانونه القائل بأن المجرات (خارج مجموعتنا المحلية)، تبدو منحسرة بسرعة تتناسب طردياً مع بعدها، وكان مغزى هذا الماكتشاف مفاجأة كبيرة للعلماء؛ لأنه يعني أن الكون قد عانى من المتوسع عند نشأته وسبب حدية سرعة الضوء لل يعني أنه يتوسع المآنه؛ لأن الضوء المقادم يحتاج لأزمنة تتناسب مع المأبعاد، فيحتاج الضوء المقادم من المقمر حوالي 1 ثانية، ومن الشمس حوالي 8 دقائق، ومن أقرب نجم حوالي 43 سنة، ومن أبعد ما يمكن رصده سيحتاج باستخدام أكبر وحدة للزمن عمر الكون أي حوالي 50سنة من سنوات المشمس (حوالي 250مليون سنة من سنوات المأرض).

نظرية الاانفجار العظيم:

وهماد نظرية الانفجار العظيم هو أن انفجاراً قد وقع للمادة الأولية للكون مما أدى لتوسعته، ومن ثم برودته، وفي اللحظات الأولى من عمر الكون كانت درجة الحرارة هائلة نتيجة لتجمع المادة، وقد سادت فيها الجسيمات الأولية التي تمثل لَ بَذات الذرات، ثم وجدت الذرات، منها تألف الغبار الكوني الذي نشأت منه فيما بعد المجرات، ولو شغّلنا الفيلم عكسياً فمن الضروري إذن أن الكون كله كان متركزاً في البدء في نقطة صغيرة، ولكنها قد جمعت كل كتلة الكون الحالي، وبسبب المنضغاط المهائل كانت البداية ذات حرارة هائلة لا تبلغها اليوم أعظم النجوم، ومع كل درجة حرارة يصدر إشعاع ذي طول موجي محدد يميزها، فلو كان هذا المتصور صحيحاً فلا بد من إشعاع يغمر الكون كله الآن يعكس تلك الحرارة الهائلة، وهو ما كشفه بالفعل بنزياس وولسون عام 1965م وتأكد وجود هذا الماشعاء عندما أرسلت مؤسسة ذاسا الأمريكية لأبحاث الفضاء قمراً صناهياً عام 1989م وبهذا أصبحت نظرية المانفجار العظيم (BANG BIG) مقبولة لدى معظم العلماء وأساسها تجمع مادة أولية في حيز صغير، ولك أن تواصل تشغيل الفيلم عكسياً حتى تصل إلى لحظة (المابداء العظيم) المتي لا يسبقها سوى انعدام المادة.

إن وهم أزلية المادة لا مستند له في الأصل كما هي حال كافة ادعاءات الملحدين التي تتلبس ثوب العلم، ونظرية المانفجار المعظيم ليست إلما تصوراً وليد تجارب علمية أيدت عملياً بدء المخلق الذي ذادي به رسل الله، بالماضافة إلى جزئيات نظرية قابلة للتعديل وفق معطيات الكشوف العلمية، ولما يخفى أن التسمية بالانفجار مهما كانت عظمته فيها بعض التضليل؛ لأنها تقصر العودة في تلاشي الكون إلى مادة أولية مكومة وليس إلى مجرد العدم، ولما مبرر مقبول لتلك التسمية سوى التهرب السافر من الخلق من العدم المحض الذي يلزم بوجود الخالق، ولكنها لم تمنع أحد أعلام الفيزياء وهو البر وفيسور/ستيفن هاوكنج البريطاني من المعتراف بأن وحدة البدء تقطع بوجود الخالق، وبالطبع وحدته ناهيك عن التصميم المتقن، والنظام الذي يمثل كشفه تاريخ العلم التجريبي بأجمعه (تاريخ موجز للكون هاولنج (ص122، 140)، وبالمثل قال ألفريد هويل: (تقول نظرية المانفجار الكبير بأن الكون نشأ نتيجة انفجار كبير، ونحن نعلم أن كل انفجار يبعثر المادة دون نظام، ولكن الانفجار الكبير عمل العكس، إذ عمل على جمع المادة وفق تصميم وقدرة فريدة لتشكيل المجرات والمنجوم والتوابع، ونشأة المإنسان على هذه المأرض، والمنتيجة المحتمية التي توصل إليها المعالم المأمريكي جورج كرنشتاين قد أعلنها بقوله: (كلما دقِّقنا في الأدلة التي يقدمها الكون المفتوح الصفحات أمامنا واجهتنا على الدوام نفسها، وهي أن هناك قدرة إلهية خلف بدء الخلق وكافة الأحداث)، ولكن المدهش أن علامات بدء الخلق التي تعلنها رسالة الكون إلى أهل النظر قد أمر القرآن الكريم بالبحث عنها في قوله -تعالى-: "قل سيروا في الأرض فانظروا كيف ينشئ النشأة الـآخرة إن الله على كل شيء قدير بدأ الخلق ثم الله " (العنكبوت: 20].